أخــلاق الفــتوة عــند الحــلاج

❑ رضوان السح*

ملخص البحث:

يـرى د.كامـل مـصطفى الـشيبي أن الفـتوة وإن ظهـرت في التصوف البغدادي إلا أن تركيز صوفية إيران على هذه النزعة كان أقـوى، لأن فكـرة الفـتوة تـراث فارسـي نـشأ قـبل الإسـلام كآلـية إصلاح وتخفيف من جور النظام الملكي الفارسي، وقد استمرت بعد الفتح الإسلامي واشتدت لما استشعر بعضهم أن الفاتحين لم يكونوا نماذج حسنة للمبادئ الـتي ينـادون بهـا[1]. وتـنطلق الفـتوة مـن مـبدأ الإيـثار، لأن "أصل الفتوة أن يكـون العـبد دائمـاً في أمـر غـيره"[2]، إلا أنهـا تـذهب بالإيـثار بعـيداً باتجـاه الـتضحية بأقصى ما يمكن تصوره من حالات التضحية.**

يـروي الهجويـري أن أسـداً افـترس بعـيراً ثـم راح يـزأر حتى تداعت وحوش البرية على وليمته وراحت تأكـل وهـو قابع ينظر، وعـندما شـبعت الوحـوش هـمَّ أن يأكـل ممـا تبقّـى، فشاهد ثعلباً أعرج متجهاً نحوه، فابتعد حتى أكل الثعلب وشبع، ثم تقدم وأكل قدراً، فكانت هذه الحادثة سبب توبة أحمد حماد السرخسي الـذي قـدم إلـيه الأسـد ــ بعـد أن شـاهد مـا جـرى ــ وخاطبه بلـسان فصيح: "يا أحمد! الإيثار باللقمة عمل الكلاب، أما الرجال فيؤثِرون بالروح والحياة"[3].

❖ عضو جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب.

❖❖ وإن كان الجنيد يرى "أن الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان". القشيري: **الرسالة القشيرية** ص٢٢٦.

(١) **الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي ص١٢٩ -١٣٠.**

(٢) القشيري: **الرسالة القشيرية** ص٢٢٦.

(٣) الهجويري: **كشف المحجوب** ج٢ص٤٢٤.

ويرى أبو القاسم النصر آباذي(ت٢٧٥هـ) أن الفتوة "هي الإعراض عن الكونين، والأنفة منهما"[١]، أي الزهد بالدنيا والآخرة، بل إيثار الآخرين بالجنة، وطلب الجحيم[٢]، "وأن تكون خصماً لربك على نفسك"[٣].

وجنحت الفتوة بالإيثار والتضحية إلى أفعال تظهر الاستخفاف بالتقاليد الاجتماعية والواجبات الدينية. فأطلقت على ذاتها اسم (الملامتية) نسبة إلى (الملامة)، فإذا كان أهل الفتوة يكثرون من محاسبة أنفسهم (=لومها)، فإن الملامتيين يفعلون ما يجرُّ عليهم (لومَ) الناس[٤]، ويحاذرون أن يظهروا فعلاً يستحسنه الناس. فقد تحولت الفتوة إلى الملامتية حين صارت الفتوة قلبية، وليست ظاهرية، وضحَّى الفتى بسمعته وهي رأس ماله[٥]. "ومن هنا كان الملامتي يتظاهر بالسكر دون أن يشرب، ويتظاهر بالفسق دون أن يفسق، ويتظاهر بالشرِّ وهو في حقيقته على اتصال دائم بالخير والحقِّ. وكان الغرض من ذلك أن تخلص عبادة الملامتي وما يقدمه من خير وتضحية، من شوائب الغرور والرياء والشهرة والمنفعة"[٦].

يقسم السلمي ــ في رسالته(أصول الملامتية) التي تعتبر المصدر الأساسي لدراسة الملامتية[٧] ــ طبقات أرباب العلوم والأحوال إلى ثلاث طبقات، فيجعل الملامتية في الطبقة الثالثة فوق علماء الشريعة (علماء الظواهر)، وهم الفقهاء، وفوق الخواص (أهل المعرفة بالله) وهم الصوفية، فيكون قد جعل للملامتية طبقة خاصة خارج التصوف، وهؤلاء، وإن اشتركوا مع الصوفية بأن خصهم الله بالكرامات، إلا أنهم "لما تحققوا بالرُّتَب السنية، وأُثبتوا في أهل الجمع والقربة والأنس والوصلة، غار الحق عليهم أن يجعلهم مكشوفين للخلق، فأظهر للخلق منهم ظواهرهم.."[٨].

---

[١] القشيري: **الرسالة القشيرية** ص٢٢٧.

[٢] انظر: الهجويري: **كشف المحجوب** ج٢ص٤٢٣ - ٤٢٤.

[٣] القشيري: **الرسالة القشيرية** ص٢٢٦.

[٤] انظر: الهجويري: **كشف المحجوب** ج٢ هامش ص٤٢٤. ويبدو أنهم يشبهون المدرسة الكلبية(cynicism) في الحضارة اليونانية. انظر: عفيفي، د.أبو العلا ـ **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة** ـ دار إحياء الكتب العربية ـ (د.م) ١٣٦٤هـ ـ ١٩٥٤م. ص٧ -٨ ،وهذه المدرسة أسسها أحد تلامذة سقراط و غورغياس، والكلبيون كانوا لا يحترمون عوائد الناس، ويرون سوء السمعة من الأمور التي تسهل تحصيل المعرفة. انظر: كون، إيغور(إشراف): **معجم علم الأخلاق** ـ تر: توفيق سلوم ـ دار التقدم ـ موسكو١٩٨٤. ص٣١٩. وفينانس، غسان: **لمحة عن مراحل الفلسفة اليونانية** ـ منشور في: تيزيني وفينانس: **تاريخ الفلسفة القديمة والوسيطة** ص١٨.

[٥] الشيبي: **الصلة بين التصوف والتشيع** ص٥١٥.

[٦] الشيبي: **صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي** ص١٣٠.

[٧] عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة** ص٤ -٥.

[٨] السلمي، أبو عبد الرحمن: **أصول الملامتية** ـ تح: د.عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م. ص١٤١، وانظر: نفسه ص١٣٩ -١٤٠.

فالصوفية تؤثِّر أحوالهم في ظواهرهم فتُرى من الناس، وأما الملامتية، فهم "الذين لم يظهروا مما في بواطنهم على ظواهرهم، (...) وهم الذين جاء في حقهم: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري"[(١)].

" وقد اشتهرت الملامتية في خراسان على الخصوص، وكان من رجالها: أبو حفص الحداد (عمر بن سلمة النيسابوري، ت٢٧٠هـ/٨٣٣م)، وحمدون القصار* (أبو صالح ابن أحمد بن عمارة النيسابوري، ت٢٧١هـ/٨٣٤م)، وقد صارت طابعاً يغلب على التصوف الفارسي في أواسط القرن الثالث الهجري."[(٢)]

وفي أواخر ذلك القرن كان الحلاج يمشي في أسواق بغداد داعياً الناس إلى قتله في سلوك غريب يحاكي غرائب الملامتية، إذ يعلن: " ليس في الدنيا للمسلمين شغلٌ أهم من قتلي"[(٣)]، مبيناً أن قتله خرج عن الحدود الشرعية التي تحقن الدماء بها، وأن هذا القتل يعود بالأجر والثواب على قاتليه.

وإذا كان من الناس من يشهد بكفر الحلاج، ومنهم من يقرُّ بولايته، فإن الذين يشهدون عليه بالكفر أحبُّ إليه وإلى الله ــ كما يقول ــ من الذين يقرّون له بالولاية. وعلة ذلك أن الذين يقرّون له بالولاية إنما يحسنون الظن به، أما الذين يشهدون عليه بالكفر فإنما يتعصَّبون لدينهم، ومن يتعصَّب لدينه أحبُّ إلى الله ـ كما يقول ـ ممن أحسن الظن بأحد[(٤)].

ويناجي ربه قائلاً: " ..فاعفُ عن الخلق، ولا تعفُ عني! وارحمهم، ولا ترحمني! فلا أخاصمكَ لنفسي"[(٥)]، وفي هذه العبارة إشارة ملامتية واضحة، إلى ما أوردنا في تعريف الملامتية، من أنها مخاصمة الرب (على النفس)، وليس (للنفس). هذا إذا لم تكن عبارة الحلاج مصدراً لذلك التعريف. ويصوِّره فريد الدين العطار يوم مقتله وقد راح يمسح وجهه بدماء يديه المبتورتين ـ على هيئة المتوضِّئ ـ قائلاً: "ركعتان في العشق لا يصح وضوؤهما إلا بالدم"[(٦)]، وبذلك تتضح أكثر (خصومة الرب) الملامتية بأنها خصومة لظاهر الشريعة، من أجل إعلاء العشق.

* * *

---

(١) الجرجاني: **كتاب التعريفات** ص٢٥٨.

* يطلق الهجويري على (الملامتية) أو (أهل الملامة) اسم (القصارية) أو (الحمدونية) نسبة إلى حمدون القصار، ويراه السلمي في طبقاته شيخ أهل الملامة بنيسابور. انظر: الهجويري: **كشف المحجوب** ج١ هامش ص٢٥٩و٤١٢.

(٢) الشيبي: **صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي** ص١٣٠ -١٣١.

(٣) ماسينيون: **أخبار الحلاج** ص٧٥.

(٤) انظر: ماسينيون: **أخبار الحلاج** ص١٤ -١٥و٨١ -٨٢.

(٥) نفسه ص٦٨.

(٦) مكارم: **الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون.** ص٦٠.

يقول د.أنور أبي خزام: " إن تعريض التصوف للدراسات السيكولوجية يقوده إلى نتائج بائسة"(١)، ولكن لا بأس في نعت مثل هذا السلوك الحلاجي ـ بدءاً بطلب القتل من الناس، ثم رجاء الرحمة الإلهية لهم، ورجاء الغضب والعقوبة الإلهيين له.. وانتهاء بتلذذه بالألم(٢) ـ بصفة (المازوخية) كما ينظر إليها بيير داكو. فالمازوخية عند داكو ليست بالضرورة ذات طبيعة جنسية(٣)، والتديُّن عنده أساس المازوخية، فقوام المازوخية الذوبان في الإله والطبيعة والموسيقا والحُبّ... أي ذوبان الأنا الفردية. ويرى أن المازوخية قد انحطت اليوم لتشير إلى ظواهر مرضية ونزوات جنسية، بينما هي تشير أحياناً إلى ظاهرة عظيمة هي ظاهرة القداسة والتصوف(٤).

يمكن أن يكون ما أسلفنا هو قول علم النفس في ظاهرة طلب الألم، على الطريقة الملامتيةالحلاجية. غير أن ماسينيون يرى أن الحلاج قد هدف من تضحيته إلى وحدة الأمة الإسلامية، هذه الوحدة التي لا يمكن أن تتم عن طريق العنف، بل عن طريق الصلوات والتضحيات في حياة الزهد والمجاهدة(٥)، فإذا كانت وحدة الأمة الإسلامية قد تضرّرت بسبب التعصب لفرقة ما، والدفاع عنها أمام الفرق الإسلامية الأخرى، فهذا الحلاج يقدّم نموذجاً آخر، هو نموذج مناصرة الآخرين على الأنا. ويرى سامي مكارم أن الحلاج هدف من موته إلى الفناء، والفداء، والتجدد، على النحو التالي:

" أولاً: تصفية الكلِّيَّة من كل أنائية، والوصول إلى غاية تحققه بالتوحد، وذلك باستهلاك ناسوتيته في اللاهوتية استهلاكاً كاملاً.

---

(١) أبي خزام: **معجم المصطلحات الصوفية** (المقدمة) ص٣١.

(٢) قال أبو الحسن الحلواني: " حضرتُ الحلاج يومَ وقعته فأُتي به مسلسلاً مقيداً وهو يتبختر في قيده، وهو يضحك ويقول:

نَديمي غيرُ منسوبٍ ... إلى شيءٍ منَ الحيفِ
دعاني ثمّ حيّاني ... كفِعْلِ الضّيفِ بالضّيفِ
فلمّا دارتِ الكأسُ ... دَعا بالنّطْعِ والسّيفِ
كذا مَنْ يشربُ الرّاحَ ... معَ التّنّينِ في الصّيفِ".

ماسينيون: **أخبار الحلاج** ص٣٤ -٣٥.

(٣) داكو، بيير: **انتصارات التحليل النفسي** ـ تر: وجيه أسعد ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق١٩٨٣. ص٥٠١.

(٤) انظر: داكو، بيير: **تفسير الأحلام** ـ تر: وجيه أسعد ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق١٩٨٥. ص٩٧ -١٠٠، وانظر: **الحلاج: الطواسين وبستان المعرفة** (مقدمة الإعداد) ص٣٠ -٣٤.

(٥) ماسينيون، لويس: **المنحنى الشخصي لحياة الحلاج** ـ منشور في كتاب: **شخصيات قلقة في الإسلام** ـ د.عبد الرحمن بدوي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ط٣ ١٩٧٨. ص٦٥. وانظر: (مجهول): **السيرة الشعبية للحلاج** (الدراسة) ص٩٤.

ثانياً: فداء العالمين حباً لهم، وبالتالي هداية لهم إلى حقيقتهم، وخلاصاً لهم من الحياة في ظلمة الوهم.
ثالثاً: (نورزة) الناس ـ على حدِّ تعبيره ـ أي تجددهم ليحققوا الانبعاث في الحق والحياة فيه"[١].

فإذا نظرنا في كل هذا الذي كان يهدف إليه الحلاج من تضحيته، وبحثنا عن حظِّه ـ مقابل حظوظ الناس ـ وجدنا أنه لا يريد لنفسه إلا التخلص منها. فإذا نظرنا إلى علم النفس ثانية، رأينا التضحية سروراً، لأن" الرجل الذي يضحي بحياة ناعمة من أجل حياة البطولة الشاقة يختار بين وظيفتين للنفس، ويختار بحق تلك التي تبدو له موصلة إلى تحقُّق للذات أكبر، وإلا فهو غير مُحقٍّ في الإقدام على هذه التضحية. وما تحمَّل المسيحُ الصلبَ إلا من أجل السرور الذي وجده أمامه"[٢]، وهذا ما يقوله فريد الدين العطار في مثل هذا الألم الذي يراه كنزاً: " إن يصبك مكروه أو ألم، فهذا مجال فخر لك، لا مجال حسرة وتألم، وكل ما أصاب الأنبياء من بلاء، لا وجه شبه بينه وبين ما حدث في كربلاء، ما يبدو لك في صورة ألم، يُعدُّ في نظر ذوي العقول كنزاً"[٣].

إن إقرار الألم والتضحية لذةً وسروراً يحيل إلى ما بين الفتوة والأخلاق المسيحية من وشائج، سواء في ممارسات التنسك التي يرى فيها بعضهم الجذور البعيدة للمازوخية ـ ولا سيما في صورة سمعان العمودي الذي عاش في القرن الخامس الميلادي في أنطاكية، وقد أمضى السنوات الأخيرة من حياته مقيماً على رأس عمود[٤] ـ أو في المحبة المسيحية عامة التي تقضي بحبِّ الأعداء والمبغضين[٥].

وإذا ما أصبح الألم والتضحية لذةً وسروراً كان المسيح على صليبه هو الحمل المنتصر الذي هزم الوحوش جميعاً[٦]، وكان يوم مصرع الحلاج عند طه عبد الباقي سرور ـ صاحب أول كتاب بالعربية عن الحلاج ـ "هو نقطةَ الانطلاق في حياة الحلاج، وهو سرُّ خلوده وسحره التاريخي"[٧]، حتى إنه يقول: "إن يوم المصرع هو يوم النصر للحلاج، ويوم الهزيمة الكبرى للخلافة العباسية"[٨].

* * *

---

[١] مكارم: **الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون**ص٦٣.
[٢] هادفيلد، ج.أ: **علم النفس والأخلاق** ـ تر: محمد عبد الحميد أبو العزم ـ را: د.عبد العزيز القوصي ـ مكتبة مصر ـ القاهرة(د.ت). ص١٦٩ -١٧٠.
[٣] العطار، فريد الدين: **منطق الطير** ـ تر: د.بديع محمد جمعة ـ دار الأندلس ـ (د.م) ط٢ ١٩٧٩. ص٢٩٨.
[٤] انظر: زيناتي، جورج: **النفعية** ـ زيادة: **الموسوعة الفلسفية العربية** مج٢قسم٢ص١٣٥٣.
[٥] انظر: زيعور، علي: **المسيحية** ـ زيادة: **الموسوعة الفلسفية العربية** مج٢قسم٢ص١٢٥٦.
[٦] انظر ـ على سبيل المثال ـ: السواح: **الرحمن والشيطان** ص١٨٢.
[٧] سرور: **الحلاج شهيد التصوف الإسلامي** ص١٩٨.
[٨] نفسه ص١٩٩.

إن أخلاق الفتوة ــ أو الملامتية ــ هي ثورة تروم قلب القيم تعبيراً عن الاحتجاج على أدعياء القيم ممن زعموا أنهم الأوصياء على تحقيق شريعة الله في الأرض، ولذا كان من أصول الملامتية أن" رأوا التزيُّن بشيء من العبادات في الظاهر شُرْكاً"[1]، وفي هذا المقام الذي يتطلب التعالي فوق الظهور بمظهر العابد، يشير جلال الدين الرومي بشعره إلى الحسين بن منصور الحلاج بعبارة (المنصورين) حين يقول: " ما أكثرَ المنصورين الذين لا يعرفُهم أحدٌ، الذين بسبب اعتمادهم على روح العشق تركوا القولَ على المنابر، واعتلَوا المشانق"[2].

ويروي الهَرَوي(ت٤٨١هـ) في طبقاته أن الحلاج دقَّ يوماً باب الجنيد فقال: من أنت؟

قال: حقٌّ!

فقال الجنيد: بل بحقٍّ.. أي خشبةٍ تفسدها!.

وهنا يضيف العطار ردَّ الحلاج بنبوءة: "يوم أخضِّب الخشبةَ بدمي، تعود أنت للبس عباءة الفقيه"[3].

وحتى خرقة الصوفية إذا ارتداها الراغبون في استعباد العباد بزعم أنهم الأوصياء على نشر طريقة الحقيقة، تحولت إلى عباءة فقيه، وكان على الأحرار من الصوفية رميُها، وهذا ما فعله الحلاج عندما رأى شيوخه ــ ومنهم الجنيد ــ يأخذون عليه انطلاقته في رؤاه وأقواله، فما كان منه إلا أن رمى ثياب الصوفية وأخذ في صحبة أبناء الدنيا[4].

ومثل هذا الاحتجاج على أهل الطريقة هو ما يجعل الملامتية تأتي في قمة الصوفية، أو في "أعلى الطائفة" وفق تعبير ابن عربي[5]، لأنها تكون قد أنجزت احتجاجاً مضاعفاً على الجمود والتزييف. وقد سُبق الحلاج إلى سلوكه هذا من قبل رجل من أشهر رجال الملامتية في خراسان وهو أبو حفص الحداد الذي كان" إذا دخل

---

[1] السلمي: **أصول الملامتية** ص١٥٠.

[2] الرومي، جلال الدين: **يد العشق** (مختارات من **ديوان شمس تبريز** ـ المجموعة الأولى) ـ تر: د.عيسى علي العاكوب ـ المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ دمشق ط١ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م. ص٤٨.

[3] ماسينيون: **آلام الحلاج**. ج١ص١٤١.

[4] ابن باكويه، محمد بن عبد الله: **بداية حال الحلاج ونهايته** ـ منشور في كتاب: **تراث الحلاج** ـ تحقيق وإعداد د.عبد اللطيف الراوي ـ د.عبد الإله النبهان ـ دار الذاكرة ـ حمص ط١ ١٩٩٦ . ص٢٨. وانظر: ماسينيون: **المنحنى الشخصي لحياة الحلاج** ص٦٦ -٦٧. وربما يذكِّر جلال الدين الرومي بفعل الحلاج في رمي الخرقة حين يقول: "نسَجَ قلبي أطلسَ جديداً، صرت عدواً لهذا المرقَّع". الرومي: **يد العشق** ص٢٦١.

[5] ابن عربي، محيي الدين: **اصطلاح الصوفية**. نقلاً عن: أبي خزام: **معجم المصطلحات الصوفية** ص١٦٨.

البيت يلبس المُرقَّعة والصوف وغير ذلك من ثياب القوم، وإذا خرج إلى الناس لبس الحسن، ويخرج إليهم بزيِّ أهل السوق"[١].

فإذا كانت المرقَّعة احتجاجاً على عباءة الفقيه الرامزة إلى تحنيط الدين في قوالب، فإن هذه المرقعة تغدو رمزاً للجمود أيضاً حين تنتشر ويرتديها من ليس أهلاً لها. بل إن الطرق الصوفية قد انطلقت "من الثورة على رسوم الفقهاء لتنتهي إلى الانغلاق في رسوم الطريقة، وهي أكثر وأكبر"[٢]، ولهذا قال الملامتي الكبير أبو حفص: "لا تكن عبادتك لربك سبباً لأن تكون ربَّاً يستعبد عبيده"[٣].

إن الصوفية في جوهرها مشروع إبداع مستمر، ومتى وقعت في التقليد، تحوَّلت عن جوهرها، ووقعت في المحظور الذي خُلقتْ لتثور عليه، وجوهر الصوفية تعبِّر عنه الملامتية خير تعبير، لأن الملامتية هي قمة التصوف، أي هي شكله الأكثر تطرفاً، ومتى اعتدلَ التصوف عَدَلَ عن جوهره الثائر والاحتجاجي والمنفتح، ليقع في التقليد والانغلاق.

وما نسبة الحلاج كلاً من فرعون وإبليس إلى الفتوة إلا شكل من أشكال الاحتجاج على الخطاب السائد، وهو احتجاج يصل حدَّ الاستفزاز وخلخلة العقول والقيم حين يعلن: "تناظرتُ مع إبليس وفرعون في باب الفتوة، فقال إبليس: إن سجدتُ سقط مني اسم الفتوة.

وقال فرعون: إن آمنتُ برسوله، أُسقطتُ من منزلة الفتوة*.

وقلتُ: إن رجعتُ عن دعواي وقولي، أُسقطتُ من بساط الفتوة"[٤].

ويكتمل انقلاب القيم حين يغدو رمزا الشرِّ الكبيران، في الثقافة الإسلامية السائدة، صاحبَه وأستاذَه: " صاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، إبليس هُدِّد بالنار، وما رجع عن دعواه، وفرعون أُغرق في اليمِّ، ومارجع عن دعواه، ولم يقرَّ بالواسطة البتة.

وإن قُتلتُ، وقُطعتْ يداي ورجلاي، ما رجعتُ عن دعواي."[٥]

---

[١] السلمي: **أصول الملامتية** ص١٦٣.

[٢] الجابري: **العقل الأخلاقي العربي** ص٤٨٨.

[٣] السلمي: **أصول الملامتية** ص١٦٩.

* السلمي يسقط فرعون من الفتوة لأنه منَّ بصنيعه على موسى حين قال له: (ألم نربِّك فينا وليدا)الآية. السلمي: **المقدمة في التصوف وحقيقته** ص٥٩.

[٤] الحلاج: **الطواسين وبستان المعرفة** ص٦٢.

[٥] نفسه ص٦٣.

وهذا يعني أن جوهر الملامتيةالحلاجية يقوم على أن يكون لك صوت نابع من ذاتك، وأن تتمسك بهذا الصوت مضحياً بكل مصلحة مهما بلغت، فنقيض هذه الأخلاق هو أخلاق المصلحة، أو البراغماتية، إذا لم يكن النقيض هو أخلاق الإمَّعة والتملق والانتهاز، أو ما يعرف اصطلاحاً بالأخلاق الفريسية*.

* * *

لا شك أن أخلاق الفتوة ــ أو الملامتية ــ تقع في إرباكات حين تتجاوز في مبالغاتها طاقة الأشياء والمعاني، فإذا كان أشد ما يضرُّ الواحد من أهل هذه الفئة قلة تبصره بعيوبه، ورضاه عن نفسه، فكيف يمكن أن يجمع كل فضائل الأنبياء والصحابة ويُطلب منه أن" لا يقع في قلبه خاطر مما هو فيه أن حاله مُرضٍ، بل يرى عيوب أفعاله ونقصان نفسه وفضل إخوانه عليه في جميع هذه الأحوال"[1]!. أو كيف يحقق الملامتي عملياً أصول مخالفة النفس، فإذا كان من الممكن أن يعاشر من يبغضه ولا يعاشر من يودُّه، ويأكل ما يعافه ويدع ما يشتهيه"، فكيف "يسافر إذا أراد المقام، ويقيم إذا أراد السفر"[2]! مثلاً.

ومثل هذه الإرباكات توقع الملامتية في ما أسماه الجابري بـ(فناء الأخلاق)[3]. أما سلوكهم القاصد إلى سقوطهم من أعين الناس فقد جرَّ عليهم سخرية خصومهم من أمثال ابن الجوزي[4]، وإن كان هذا يصب في قصدهم الأخلاقي ذاته، أي أنهم يقصدون أن يجرّوا على أنفسهم الملامة.

وأما تحول الفتوة في عصور متأخرة إلى جماعات من العيارين والشطار تنهب الحوانيت والأسواق، فإن هذا التحول يخرجها من الفتوة التي نتحدث عنها، والتي تقوم على الإيثار والتضحية وإسقاط كل مصلحة للنفس، ولا تتعلق هذه الفتوة بتلك إلا بقدر ما يقوم أحد العيارين والشطار بفعل يعبِّر عن الإيثار والتضحية دون قصد الظهور بمظهر المؤْثر أو المضحّي، وعندها يكون فتى، وتكون أخلاقه أخلاق الفتوة.

* يتحدَّر المصطلح من تسمية طائفة يهودية(الفريسيين)، والأخلاق الفريسية تقوم على الشكلانية والنفاق.انظر: **معجم علم الأخلاق** ص٢٨٨ -٢٨٩.

(١) السلمي: **أصول الملامتية** ص١٥٤.

(٢) نفسه ص١٤٩.

(٣) انظر: الجابري: **العقل الأخلاقي العربي** ص٤٨٧ -٤٨٨.

(٤) ابن الجوزي: **تلبيس إبليس** ص٢٨٢.

المصادر والمراجع

ابن باكويه، محمد بن عبد الله:
- **بداية حال الحلاج ونهايته** ـ منشور في كتاب: **تراث الحلاج** ـ تحقيق وإعداد د.عبد اللطيف الراوي ـ د.عبد الإله النبهان ـ دار الذاكرة ـ حمص ط١ ١٩٩٦.

ابن الجوزي، عبد الرحمن:
- **تلبيس إبليس** ـ ضبط الأصل وعلّق عليه ووضع فهارسه: د.محمد الصباح ـ دار مكتبة الحياة ـ ط١ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

أبي خزام، د.أنور فؤاد:
- **معجم المصطلحات الصوفية** ـ مراجعة: د.جورج متري عبد المسيح ـ مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٣.

تيزيني، د.طيب. و فينيانس، د.غسان:
- **تاريخ الفلسفة القديمة و الوسيطة** ـ المطبعة الجديدة ـ دمشق ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ م. ص٣١ -٣٢.

الجابري، د.محمد عابد:
- **العقل الأخلاقي العربي** ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ط١ ٢٠٠١.

الجرجاني، علي بن محمد:
- **كتاب التعريفات** ـ تح: د.عبد المنعم الحفني ـ دار الرشاد ـ القاهرة (د.ت).

الحلاج، الحسين بن منصور:
- **الطواسين وبستان المعرفة** ـ أعد النصوص وقدم لها: رضوان السح ـ دار الينابيع ـ دمشق١٩٩٤.

داكو، بيير:
- **انتصارات التحليل النفسي** ـ تر: وجيه أسعد ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق١٩٨٣.
- **تفسير الأحلام** ـ تر: وجيه أسعد ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق١٩٨٥.

الرومي، جلال الدين:
- **يد العشق** (مختارات من **ديوان شمس تبريز** ـ المجموعة الأولى) ـ تر: د.عيسى علي العاكوب ـ المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ دمشق ط١ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

زيادة، معن:
- **الموسوعة الفلسفية العربية** ـ معهد الإنماء العربي ـ (د. م) ط١ ١٩٨٦.

سرور، طه عبد الباقي:
- **الحلاج شهيد التصوف الإسلامي** ـ نهضة مصر ـ القاهرة ط٣ ١٩٩٦.

السلمي، أبو عبد الرحمن:
- **أصول الملامتية** ـ تح: د.عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

- **المقدمة في التصوف وحقيقته** ـ تح: يوسف زيدان ـ مكتبة الكليات الأزهرية (د.م) ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
السواح، فراس:
- **الرحمن والشيطان** ـ دار علاء الدين ـ دمشق ط١ ٢٠٠٠.
الشيبي، د. كامل مصطفى:
- **صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي** ـ دار المناهل ـ بيروت ط١ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- **الصلة بين التصوف والتشيع** ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ط٢ ١٩٦٩.
عفيفي، د.أبو العلا:
- **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة** ـ دار إحياء الكتب العربية ـ (د.م) ١٣٦٤هـ ـ ١٩٥٤م.
القشيري، عبد الكريم:
- **الرسالة القشيرية** ـ تحقيق و إعداد: معروف زريق ـ علي عبد الحميد أبو الخير ـ دار الخير ـ دمشق ـ بيروت ط٢ ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م.
كون، إيغور(إشراف):
- **معجم علم الأخلاق** ـ تر: توفيق سلوم ـ دار التقدم ـ موسكو١٩٨٤.
ماسينيون، لويس:
- **أخبار الحلاج** ـ مطبعة القلم ـ مكتبة لاروز ـ باريس ١٩٣٦.
- **آلام الحلاج** ـ تر: الحسين مصطفى حلاج ـ شركة قدمس ـ بيروت ط١ ٢٠٠٤.
- **المنحنى الشخصي لحياة الحلاج** ـ منشور في كتاب: **شخصيات قلقة في الإسلام** ـ د.عبد الرحمن بدوي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ط٣ ١٩٧٨.
مؤلف مجهول:
- **السيرة الشعبية للحلاج** ـ تح: رضوان السح ـ دار صادر ـ بيروت ط١ ١٩٩٨.
مكارم، سامي:
- **الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون** ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن١٩٨٩.
هادفيلد، ج.أ:
- **علم النفس والأخلاق** ـ تر: محمد عبد الحميد أبو العزم ـ را: د.عبد العزيز القوصي ـ مكتبة مصر ـ القاهرة(د.ت).
الهجويري، علي بن عثمان:
كشف المحجوب ـ تر: د.إسعاد عبد الهادي قنديل ـ راجع الترجمة: د.أمين عبد المجيد بدوي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٠.

❑❑